آفاق الثقافة والتراث

مجلة
فصلية
ثقافية
تراثية

تصدر عن دائرة البحث
العلمي والدراسات
بمركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث

السنة السادسة ، العددان الثاني والعشرون والثالث والعشرون - جمادى الثانية ١٤١٩ هـ - أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م

مخطوط الكواكب الدرية وتخميساتها - ٨٥٧ هـ

MANUSCRIPT " AL KAWAKIB AL DURRYA WA TAKHMISATIHA" 857 (A-H)

الالتـزام الأدبـي
في المفهـوم الإســلامي

الدكتور: وليد قصاب
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي

الالتزام الأدبي في المفهوم الإسلامي

الالتزام - لغةً - التعلق، وعدم المفارقة، يقال: التزم الأمر، وفلانًا: اعتنقه، ولم يفارقه. ولكنه في الأدب مصطلح نقدي حديث لمدلولٍ قديم أقرب ما يكون في تراثنا الفكري إلى «المسؤولية»، قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيته».

وهو يعني صدور الأدب عن موقفٍ فكريّ يتبناه صاحبه، ويدافع عنه، ويقف ما يقوله على المنافحة عنه، والترويج له. إنه إخلاصُ الأديب لقضية عقدية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو فنية، وصدوره بوعي كامل، وإحساسٍ متيقظ مدرك، عمّا تمليه عليه من التصورات والرؤى والأفكار والمشاعر.

إن الأديب الملتزم صاحب موقفٍ واضحٍ محدّد، تتلمّسه فيما يكتب. إنه نوعٌ من الارتباط الفكري والشعوري بشيء خارج الذات، ارتباطٌ بالآخر: المجتمع والناس، ومشاركة في قضاياه المختلفة. إنه نقيض العزلة والهروب والانسحاب.

وإذا كان كل أدبٍ - في الأصل - صدورًا عن تصوّرٍ فكريّ معيّن، فهذا يعني أن الالتزام بأشكالٍ متعددة هو من طبيعته.

ولكن صدور الأديب عن موقفٍ فكري، أو أيديولوجيا معينة، يمكن أن يأخذ مسارين اثنين:

١ - مسار إملاء.

٢ - مسار اختيار.

فأما مسار الإملاء فيعني أنه من خارج ذاته، مفروضٌ عليه فرضًا: من دولةٍ، أو حزب، أو طائفة، أو سلطان، أو ما شاكل ذلك. وهو - تحت ضغط الإكراه، أو الخوف، أو الإغراء، أو التملّق - يعبّر - من غير اقتناعٍ ذاتيّ - عن مواقف معينة، يروّج لها، ويدافع عنها. وهذا أحرى أن يُسمّى

عندئذٍ «إلزامًا» لا «التزامًا»؛ لأنه يتنافى مع الحرية، ويقع في أُحبولة القسر والاستكراه..

وقد عرف تاريخ النظرية النقدية هذا الضرب من الإلزام في قديمه وحديثه؛ أشار أبو نوّاس ذات مرة إلى أنه يصف الأطلال تملّقًا للخليفة، فقال - وهو الثائر على وصف الأطلال :

أعِرْ شعرَك الأطلالَ والدّمنَ القفرا

فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا

دعاني إلى وصفِ الطلول مُسَلَّطٌ

يضيق ذراعي أن أجوز له أمرا

فسمعًا - أميرَ المؤمنين - وطاعة

وإن كنتَ قد جشّمْتني مركبًا وَعْرا

ومهما كان حظ الحقيقة مما يدّعيه أبو نواس، فإن الرجل كان واقعًا - في وصفه الأطلالَ - تحت ضغط إكراه معين يبعده عن الالتزام الحقيقي.

وعرفنا هذا الإلزام في العصر الحديث عند أصحاب الاتجاه الشيوعي، الذين صاغوا رؤيتهم الأدبية النقدية فيما أطلقوا عليه اسم «الواقعية الاشتراكية»، وقد تبنّى الحزب الشيوعي هذه النظرية، وراح يفرضها على الأدباء والنقاد فرضًا، ويلزمهم بها إلزامًا، حتى تحوّل الأدب إلى أداةٍ مسطّحة لخدمة الأيديولوجيا، حتى سمعنا شاعرًا وناقدًا معروفًا هو «ستيفن اسبندر»، وكان قد انتمى إلى الماركسية ردحًا من الزمن، يقول: «لقد لاحظت بين رجال الفكر الشيوعيين سنة ١٩٣٠ وما بعدها نوعًا من السلوك، قد أصبح اليوم في أوروبا الشرقية أمرًا رسميًا مقرّرًا في نقابات الكُتّاب التي تملي على القصصيين والشعراء كيف ينبغي أن يفكروا ويشعروا. لقد كانت المَشْغَلَة الرئيسة لمجموعة من الكتاب الذين التقوا لبحث مشكلة الفن والمجتمع الأزلية، أن الأدب ينبغي أن يشرح نظرية «ماركس» ويعرضها حول سمو الطبقة العاملة، وحول ضرورة الثورة»(١).

ولكن هذا لا يعني أن الاتجاه الماركسي في الأدب كله كان إلزامًا: إذ لا شك أن بعض أدباء هذا الاتجاه صدروا عن إيمانٍ صادق بمبادئه واختيار حرّ لها، فكان ما صدر عنهم «التزامًا» بمبادىء وأفكار شيوعية، آمنوا بها عن قناعة حارة، وجنّدوا أدبهم - مختارين غير مكرهين - لتصويرها والتعبير عنها.

وأما مصادر الاختيار فهو الأصل، حتى يسمى ما يصدر عن أصحابه «التزامًا» كما عرفت. وهذا الالتزام لا يتنافى عندئذٍ مع الحرية، بل هو والحرية صنوان متلازمان؛ لأنه في أصله اختيار حرّ، وقناعةٌ نزيهة، وهو مبني على الوعي والإدراك، والإحساس والاقتناع، فهو ذاتي داخلي، لا يُمْلى من خارج، ولا تفرضه سلطة عليا، ولا يقع تحت طائلة الاستجابة لأيّ ضغطٍ مهما كان نوعه، ماديًا، أو نفسيًا، أو جسديًا.

وإن كل نصّ - كما ذكرنا - هو التزام رؤية معينة، والأدب تعبيرٌ ذاتيّ فردي عن الأشياء كما يتخيلها المُنشىء، أو كما تنطبع في وجدانه، رؤية يمليها التزامٌ بتصورٍ فكري معيّن، لا كما عليه في الواقع، أو كما تعكسها عدسة التصوير. ولكن الأدباء - في إطار هذا الالتزام - فريقان:

١ - فريقٌ تتغيّر مواقفهم، وتتبدّل آراؤهم واتجاهاتهم، ولا يُستبعد أن تقرأ لأديبٍ معيّن في فترتين متباعدتين، أو متقاربتين - كتاباتٍ، فتجده على طرفي نقيض: إما لتبدّل في حالته النفسية، أو الاجتماعية، أو المادية، أو ما شاكل ذلك، وإما لتغيّر رؤيته الفكرية للأشياء، ونسخ قناعات قديمة كانت موجودة عنده. ولا شكّ في أن بعض هذا التذبذب في المواقف مسوّغٌ مقبول، وذلك عندما تتجلى

للأديب وجوهٌ من الأمور، وصورٌ من الحقائق كانت خافية عليه، فهذا عندئذٍ من باب الصّدع بالحق، وعدم التمادي في الباطل. ولكن بعض صور هذا التذبذب ممجوجٌ مستهجن؛ لأن دوافعه ليست تجلي وجه الحق، بل التملّق والنفاق، وتغيير الجلد بما يناسب كل حالة. إنه ضربٌ من الانحياز إلى صفّ المصلحة الشخصية لا الحقيقة الموضوعية، إنه الانتهازية عينها.

ومثل هذا الأديب – في تصورنا – ملتزمٌ، وإن كان التزامًا غير ثابت بمبدأ أو فكرٍ خاص، ولا يمكن أن نحكم على توجهه الفكري إلا من خلال الصورة التي استقرّ عليها معظم إنتاجه.

٢ – وفريقٌ آخر تلمّس موقفه الفكري في كلّ ما كتب، أو غالبيته العظمى على الأقل، فهو ثابتٌ لا يتذبذب، راسخٌ لا يريم، عقيدته التي آمن بها كالشجرة الركينة المكينة، لا تزعزعها الرياح، ولا تجتثها العاديات. إنه أديبٌ ملتزمٌ فكرًا، عاش ومات يدافع عنه، إنه كصورة «أحدٌ – أحد» عند بلال.

قلنا إن الالتزام مصطلحٌ نقديّ حديث لمدلولٍ قديم هو المسؤولية والرعاية في تراثنا. وقد شاع وذاع في الدراسات الحديثة على أيدي الماركسيين والوجوديين بشكلٍ خاص.

بدأت فكرة الالتزام في عشرينات هذا القرن عند قيام الدولة الشيوعية فيما كان يُعرف بالاتحاد السوفييتي، وذلك نتيجة تقدير أقطاب الشيوعية لخطر الأدب، وعظيم سلطان الأدباء، حتى قال ستالين: «الأدباء مهندسو البشرية». ولكنّ الالتزام خرج على أيدي هؤلاء القوم – في أحيانٍ غير قليلة – عن رسمه الحقيقي، ففقد اسمه، وصار «إلزامًا».

وأما عند الوجوديين فلم يصبه هذا الانكسار، وذلك أن الوجودية ليست مذهب دولة، أو حزب، أو سلطة سياسية، بل هي نزعة فكرية معينة، آمنت بها طائفة من الناس، وروّج لها مفكرون غربيون كبار، من أبرزهم في فرنسا: سارتر، وكامو، وأندريه جيد، وكير كجارد وغيرهم. وهؤلاء كان اختيارهم للوجودية اختيارًا حرًّا واعيًا. وجدوا فيها – كما أوحت إليهم شياطينهم التي اجتالتهم – الخلاص للإنسان.

إن التزام الوجودية التزامٌ حقيقي: لأنه مقرونٌ بالاختيار، تمليه الحرية الفردية، والقناعة الذاتية، وليس مُمْلى عليهم من سلطانٍ خارجي.

التزام الناقد

توضع فكرة «الفن للفن» عادةً في مقابل فكرة «الالتزام»، وتدّعي الأولى أنها هي «الحرية»، وتنسب إلى الثانية أنها «قيد» وعبودية، وذلك أن أصحاب «الفن للفن» لا تهمّهم أفكار الأديب أصلاً، وهم غير معنيين بما يقوله، بل هم معنيون بأسلوبه في التعبير، وطريقته في القول، يتلمّسون في النص الأدبي صفات شكلية جمالية، تمثّلها مهارة في اختيار الألفاظ، وسبك العبارات، ورسم الصور، وانتقاء الأخيلة والرموز. إن العمل الأدبي – في عُرف هؤلاء القوم – تشكيلٌ جماليّ باهر، لا هدفَ من ورائه إلا المتعة، ونُشْدان الجمال، فهو غير نفعيّ، ولا اصطلاحي، ولا اجتماعي، ولا سياسي، ولا ديني، ولا يطلب منه شيءٌ من ذلك، ولا يتفياه، ولا يحاسب الأديب على شيءٍ من أفكاره مهما كان نوعها.

كان واحد مثل أوسكار وايلد يقول: «إن كل الفنّ لا نفعَ فيه»(٢).

وإنّ قريبًا من هذا التصوّر هو ما عبّر عنه قديمًا «قدامة بن جعفر» حين حصر جمال الشعر كله في الصياغة، حتى لا تثريب على الشاعر في أن يشرع في أي معنى كان: حميدًا أو ذميمًا، حقًا أو باطلاً، بشرطِ أن يبلغ من التجويد الفنيّ في ذلك إلى النهاية المطلوبة(٣).

وقد يسرف قومٌ في هذه النزعة، فيعدّون كلّ فكرةٍ خلقية، أو دينية، نشدة للأدب، فالأدب عندهم مقرونٌ بما هو دنيويٌّ محض.

هذا هو الناقد الجمالي، ناقد «الفن للفن». ولكن الناقد الملتزم لا يغفل عن أمرين اثنين، هما: أمرُ الشكل الفني الذي يتحدث عنه الناقد الجمالي، وذلك لأن هذا شرطٌ في كل كلام حتى يكون أدبًا، وهو القاسم البديهي المشترك بين جميع الآداب، مهما كانت منازعها الفكرية، أو الجمالية. وأما الأمر الثاني فهو المضمون، وبهذا يتميّز هذا الناقد الملتزم من الناقد الجمالي في أنه يُعْنى بالأفكار، ويوليها حظًا غير قليل من الرعاية والفحص. إنه معنيٌّ بشيئين هما: كيف قال الأديب، وماذا قال؟ وهو يراهما حصانيْ عربة الأدب، التي لا يمكن أن تنجرّ بأحدهما فقط.

وهنا تتدخل العقائد والأفكار والأيديولوجيات المختلفة في حكم الناقد، فهناك ناقدٌ شيوعي، وسيكون معيار جودة الأدب عنده – إن كان ناقدًا حقيقيًا – بعد استيفائه الخصائص الجمالية طبعًا، أن يكون معبّرًا عن قضايا معينة، هي قضايا الاشتراكية، وكفاح العمال، وأن تفوح منه رائحة المصانع، ودخان المعامل، وعرق الكادحين، والصراع الطبقي، وما شاكل ذلك.

إن الأدب الثوري التقدمي في عُرف هؤلاء القوم هو ما عبّر عن هذه الأفكار، وصدر عن هذه التصورات، ولذلك فهو يصم كل أدب لا يتركز «في تمجيد الجماهير أو الجماهير الكادحة، والتبشير بأمجادها وجهادها ومستقبلها، وفي الدعوة لقضاء حاجاتها المادية.. بأنه أدبٌ برجوازي، وفنّ برجوازي، وفكرٌ برجوازي»(٤).

وإذا كان الناقد وجوديًا احتضن بما عبّر عن النزعة الوجودية من الأدب، فصوّر قلق الإنسان، وعبثية الحياة والموت، والسأم والملل والقرف والضجر، ولا جدوى العيش، وما سخّر من القيم والعادات والأخلاق والأديان، وما أشاد بحرية الإنسان المطلقة في الأرض من غير قيودٍ ولا سدود، إلا ضميره والتزامه ومسؤوليته.

إنّ كلّ ناقد ملتزم سيبحث في الأدب – بعد استيفاء الجماليات – عن التصورات الفكرية والعقدية التي يؤمن بها.

وإذا قال قائل: إن خطر النقد الملتزم هو هذا السقوط في أحبولة العقائد والأيديولوجيات، قلنا إن هذا أمرٌ لا سبيل إلى اجتنابه؛ لأن الذي لا شكّ فيه أبدًا أن أي قارئٍ للأدب – سواءٌ أكان متذوقًا عاديًا، أم ناقدًا متمرّسًا متخصصًا – لا بدّ من أن يتأثر بما يحمله من عقائد وأفكار، وهو يستقبل العمل الأدبي، أو يحكم عليه.

وإذا كان الناقد الجمالي يدّعي أنه لا يحفل بالمضمون، أفليس يصدر في تبنّيه لقضية الجمال ودفاعه عن الفكر والمتعة عن ضرب من الرؤية الفكرية؟ ألم تحلّ ها هنا فكرة الجمال، ونشدان المتعة، وتصوّر السعادة في هذا الجمال المطلق محلّ أيّ أيديولوجيا يتبناها ناقدٌ من الطراز الثاني.

إن الخطر في فكرة «الفن للفن»؛ لأنها دعوةٌ إلى تجريد الفن من النهاية، والزعم أنه بغير وظيفة، وادّعاءٌ أنه لا يحمل غرضًا نفعيًا على الإطلاق، ومن ثم تصوير الجمال فيه في الشكل وحده فقط معزولاً عن أي قيمة يمكن أن يحملها.

الالتزام الإسلامي

١ – إنّ أيّ مقارنة بين الالتزام الأدبي من المنظور الإسلامي وغيره من ضروب الالتزام، التي أشرنا إلى بعضٍ منها، لتضع اليد على غنى الالتزام الإسلامي ورحابته وتنوّعه، وعلى عفويته وانفتاحه.

إذا كان الالتزام الشيوعي – كما عرفت – تبنّي

الدفاع عن العمال والفلاحين، وقضايا الصراع الطبقي، وما شاكل ذلك من المفاهيم الضيقة، التي توقفنا عندها، والتي غدت «رواسم» متكرّرة مملّة في أدب هؤلاء القوم، وإذا كان مفهوم الالتزام الوجودي ضيقًا هو الآخر، مقصورًا على الدفاع عن حرية الإنسان، وتحريره - كما يدّعي الوجوديون - من كل إرث، وتحميله مسؤولية العيش في حياةٍ عبثية لا تُعرف بدايتها ولا نهايتها، ولا الغاية منها، أقول إذا كان الأمر كذلك في ضيق آفاق الالتزام عند هؤلاء وأولئك وغيرهم، فإن الالتزام في الأدب الإسلامي واسعٌ رحيب. إنه التزامُ العقيدة الإسلامية بكل ما تنطوي عليه من عالميّةٍ وشمول، وصدورٍ عن تصوراتها للكون والإنسان والحياة، فهو ليس طبقيًا، ولا فئويًا، ولا محبوسًا على قضايا معينة، وجمهور خاص، وزمانٍ بعينه. إنه التزامٌ بقضايا إنسانية عامة، لها صفة الديمومة والخلود، التزامُ الخير والحقّ في أشكالهما المجرّدة المطلقة، والدفاع عنهما حيثما وُجدا، وعند من وُجدا. والصراع فيه ليس بين طبقاتٍ اقتصادية، بل بين العدل والظلم، بين الحق والباطل. والخيرُ والحقّ يتمثلان فيما أراده خالق العباد للعباد، وفيما شرعه بارىء الكون للكون، وفيما سنّه فاطر الحياة للحياة، والباطل ما نكّب عن ذلك، فاحتكم إلى الطاغوت.

إن الالتزام في الأدب الإسلامي لا حدود له، وهو لا يفرض على الأديب موضوعًا معيّنًا، أو جمهورًا خاصًا. إنه يستطيع أن يلتزم أي قضية - صَغُرت أو كبُرَت - وليس لهذا الالتزام إلا ضابطٌ واحد، هو مواطأة الحق بمعناه العقدي العام، والتعبير عنه كما يراه الإسلام، وكما تطمئن إليه الفطر الإنسانية السليمة التي فطر الله الناس عليها.

٢ - وإن الالتزام الأدبي الإسلامي التزامٌ حقيقيّ؛ لأنه نابعٌ من داخل الأديب المسلم، لا يُمْلَى عليه، ولا يوجهه إليه أحد، إنه جزءٌ من شخصيته وعقيدته. إنّ كونه مسلمًا، اختار هذا الدين عن طواعية وإرادة، من غير قسْرٍ ولا إكراه ﴿**لا إكراه في الدين**﴾، يعني أنه منضوٍ تحت لوائه، حامل شعاره، مستظلّ بظله، يعني أنه يصدر عن الإسلام بشكلٍ عضوي تلقائي: قولاً وعملاً، كلامًا وسلوكًا، ويحدث هذا الالتزام بشكلٍ غير واعٍ؛ إذ لا يتعمد تعمدًا الحديث عن موضوعٍ معين بتصوّرٍ إسلامي، وإنما يأتي ذلك منه تلقائيًا، كما ينساب ماءُ النهر. إنه جزءٌ من عملية الإلهام الفني التي يمرّ بها، جزء من تجربته الذاتية نفسها، فهو إذا ما عبّر عن تجربةٍ ما صدرت عن نبعِ الإسلام بشكلٍ عضوي طبعي؛ لأن نفسه متشبعة بهذا النبع، ولا يمكن أن تصدر عن غيره أصلاً، كما لا يمكن لها الانفلاتَ منه؛ لأنه متغلغلٌ فيها تغلغلاً عميقًا غير شعوري ولا مُدْرَك.

٣ - والالتزام في المنظور الإسلامي يتحوّل الكلام فيه إلى عمل، والقول إلى فعل، في ثنائيةٍ متكاملة متضامّة، لا يُتَخَيّل وجهٌ من وجهيها دون الآخر. قال تعالى في النعي على من ابتلوا بهذا الانفصام: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبُر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾(٥).

وقال كذلك: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم**﴾(٦).

ومن اتّقى الله طابق قولُه فعله، وكلامه عمله، ولم يقع تحت طائلة ﴿**لم تقولون ما لا تفعلون**﴾ و ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**﴾(٧).

٤ – إن الالتزام الإسلامي بهذا المفهوم ليس قيدًا على الأديب، وهو لا يتنافى مع الحرية؛ لأنه لا أحد يلزم الأديب المسلم، أو يكرهه على القول. إنّ ما يحمله على قول ما يقول ضميره الديني، وهاجسُ الإيمان الذي يتلبّسه، وإحساسه الذاتي الذي هو جزءٌ من شخصيته، بأنه ضمير الأمة، وصوتها النفّاذ، وشعوره بخطر الكلمة، وعظيم سلطانها. إن الأديب المسلم ملتزمٌ حرّ، يمتلك الإرادة والقدرة والاختيار والقناعة.

٥ – وفي الالتزام الأدبي الإسلامي لا تكون الصنعة الفنية هدفًا في حدّ ذاتها، بل وسيلة لهدفٍ نبيل، هو تقديم الفكر تقديمًا باهرًا مؤثرًا. إن الفكر مهمّ في الأدب الإسلامي، ولكن لا يجوز أن يتحوّل العمل الأدبي – تحت أي مسوّغ – إلى شعاراتٍ، أو لافتات، ولا ينبغي أن تحملنا الحماسة للقيم الخيّرة، التي يقدِّمها الأدب، على إهمال الجانب الفني، أو التساهل فيه، أو التهوين من شأنه. فينبغي – في هذا السياق – أن نحمل بعض عبارات نقادنا العرب القدماء في الاحتفال بالشكل، والحماسة المفرطة له، على أنها نوعٌ من تقدير الجانب الفني من غير تفريطٍ بقيمة المعاني، أو إسقاط لشأنها، كما وقر في أذهان بعض الدارسين المحدثين.

ولكننا في الالتزام الإسلامي لا يجوز أن نفرط مع المغالين فنقول: إنّ من حق الأديب أن يتناول أيّ معنى: وضيعًا كان أو رفيعًا، حقًا أو باطلاً، بشرط الجودة الفنية. إن أديبًا يمتلك الأدوات الفنية ويجوّدها هو فنانٌ مجيد، وقد يكون – بالمعايير الفنية – مخلاً، ولكنه حتى يكون أديبًا إسلاميًا، لا بدّ من أن تلتقي في إنتاجه الرؤية الفكرية النابعة عن تصورٍ إسلاميّ بالفن، أن يعتنق المعنى الكريم باللفظ الرشيق، والقيم الخيِّرة الفاضلة بالأسلوب المبهج المتميّز.

يقول أندريه ريشار: «حين تهيمن العقيدة قسريًا على مجتمعٍ من المجتمعات لا يعود المعيار النقدي جماليًا، بل يمسي لاهوتيًا: إذ يتحول البحث نحو ما إذا كان الأثر الفني مواليًا للعقيدة أو معارضًا لها. وفي الحالة الأخيرة يخنق الأثر في مهده، ولا تكتب له الحياة»(٨).

وهذا الكلام – إن صحّ – لا ينطبق على الالتزام الأدبي الإسلامي على الأقل؛ لأنه لا قسر في هذا الالتزام كما عرفنا، ولأن الحكم الفني المجرّد على عملٍ من الأعمال الأدبية شيء، وقبوله والموافقة عليه شيءٌ آخر مختلف تمامًا. وكم أقرّ النقاد العرب بالشاعرية والفحولة لشعراء كانوا على غير جادة التصوّر الإسلامي، كما أن الناقد الإسلامي لا يمكن أن يلغي المعيار الجمالي عند الحكم والتقويم والتذوق، ولكنه لا يفيء إليه وحده، وليس هو المعيار الوحيد في جمالية الفن وتميّزه، بل لا بدّ من أن تلعب القيمة الفكرية لهذا العمل أو ذاك دورًا في هذا الحكم، وفي تحديده.

٦ – إن الالتزام الأدبي الإسلامي شاملٌ لكلّ ضروب الكلام، سواء أكان شعرًا، أم قصةً، أم مسرحية، أم خطبة؛ أي سواء أكان الكلام شعرًا أم نثرًا، إنه ليس مقصورًا على الشعر وحده كما زعم سارتر فيلسوف الوجودية، بحجة واهية، هي أن الشعراء يترفعون باللغة عن أن تكون نفعية، وأنّ الشعر يخدم اللغة، على حين أن اللغة تخدم النثر.

إن كلّ أشكال الكلمة – في المنظور الأدبي الإسلامي – في موضع الأمانة والمسؤولية، وهي رسالة ذات شأن، ولا بدّ من أن توظف في خدمة الحق والخير والقيم الفاضلة.

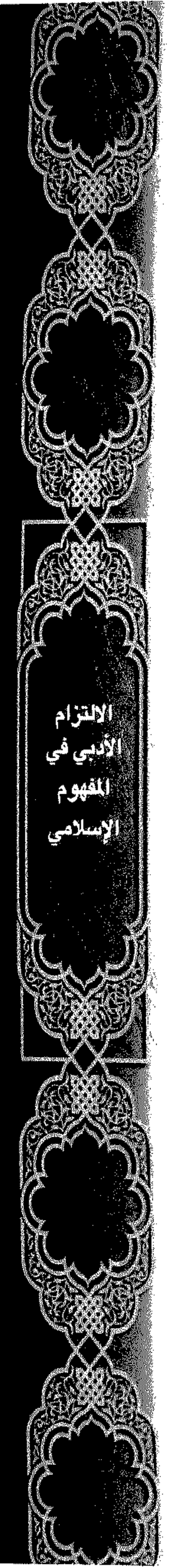

أهمية الالتزام في الأدب

إن الالتزام من سماتِ العصر، وجميع الفنون والآداب تأخذ بحظّ منه، ولكن إذا كان الالتزام - بصفته مصطلحًا نقديًا متميّزًا - دعوة فكرية عصرية أملتها في هذا الزمن حاجة المذاهب والأحزاب السياسية والأفكار الفلسفية المتصارعة إلى الدعاية، فإن الالتزام في أدبنا العربي عامةً - والإسلامي خاصةً - قديمٌ جدًا، فمنذ نشأ الشعر العربي وهو مجندٌ لخدمة أعراف القبيلة، والدفاع عنها، والإشادة بمآثرها، وتسفيه خصومها، إنه - بلغةِ العصر - رمز الإعلام المعبّر عن سياستها. ومنذ الفترة المبكرة وظّف الإسلام الأدب في خدمة حركته الكبرى، وجعل أصحاب الكلمة الشريفة من الأدباء مجاهدين، فقال رسول الله ﷺ: **(إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه)**(٩). وقال عليه السلام للشعراء المسلمين الذين كانوا ينافحون الباطل، وينصرون الإسلام: **(والذي نفسي بيده لكأنما الذي يرمونهم به نضْح النبل)**(١٠). وحظي الشاعر المجنّد الملتزم بمكانة رفيعة جدًا عند رسول الله ﷺ في صفوف المجتمع الجديد، ولنا أن نتصور هذه المكانة ونحن نتابع شيئًا من أخبار حسان بن ثابت شاعر الإسلام، ونرى موقعه عند النبيّ - عليه الصلاة والسلام - وفي نفوس القوم، ولنا أن نرى في أيامنا هذه - على سبيل المقايسة - شاعرًا تخصّص له أجهزة الإعلام في دولة إذاعة تبث منها شعره. تُرى ألا يشبه موقف رسول الله ﷺ من حسان وهو ينصب له منبرًا في مسجده، ويأذن له أن ينشد فيه على رؤوس الناس، هذا الصنيع أو يدانيه؟ روت السيدة عائشة - رضي الله عنها -: أن النبي ﷺ كان يضع لحسان منبرًا في المسجد يقف عليه قائمًا ينافح عن رسول الله ﷺ ويقول: **(إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله)**(١١).

إن جميع المذاهب الفكرية والأحزاب السياسية والتيارات الفلسفية المختلفة تتخذ الأدب في هذا العصر، ومنذ أقدم العصور، قالبًا لنشر الفكر الذي تعتنقه، فالالتزام سمة حضارية قديمة حديثة. وذلك أن الإيمان بدور الأدب إيمانٌ راسخٌ مكين.

إن الأدبَ نشاطٌ مؤثرٌ فعّال، وذلك لأنه ممتع جميل، وهو يخاطب في المتلقي أكثر من حاسة، فهو ذو قدرة على الانسراب في طوايا النفس، وتحريك سواكنها، وإثارة المشاعر الدفينة في أعماقها، ولذلك تستخدم المذاهب والفلسفات المختلفة الأدب سلاحًا هامًّا لإذاعة أفكارها، وبثّ معتقداتها، وهي تبوّئه منزلةً رفيعة في هذا المجال. ولنتذكر - مثلاً - أن واحدًا كجان بول سارتر - فيلسوف الوجودية - لم ينشر أفكاره المرضية الإلحادية في كتبٍ فكرية، باستثناء كتابين أو ثلاثة، ولكنه استطاع أن يذيع هذه الأفكار، وأن ينشرها بين الناس من خلال الأدب، من خلال رواياته ومسرحياته، كالذباب، والأيدي القذرة، وغيرهما، وكذا فعلت الشيوعية، عندما تبنى دعاتها نظرتها إلى الأدب، ممثلةً في الواقعية الاشتراكية. ثم طلع علينا أدب هذه المدرسة ملتزمًا النظرة الشيوعية إلى الكون والحياة والإنسان، وراحت تبثّ ذلك في الشعر والقصص والمسرحيات والأغاني، وغير ذلك من ضروب الفن المختلفة، حتى كان أدب هذه المدرسة - كما عرفنا - لا يدور إلا حول صراع الطبقات والعمال والفلاحين والكادحين، وقضايا الأغنياء والفقراء، والخبز والعرق والكفاح. لقد كانت كل كلمة في أدب الواقعية الاشتراكية مجنّدة لخدمة الفكر الشيوعي والدعوة إليه.

إنّ ارتباط الأدب بالأيديولوجيا أمرٌ لا نزاعَ فيه، فليس هنالك أصلاً فنّ لا يدعو إلى فكرٍ معين. وإن فكرة (الفن للفن) خرافة، وهي لا وجود لها عند التطبيق العمليّ. ومهما ادّعى أي ناقدٍ أنه سينظر إلى النصّ الأدبي الذي أمامه نظرة فنية مجرّدة، لا

الالتزام الأدبي في المفهوم الإسلامي

تعبأ بما فيه من فكرٍ، أو بما يدعو إليه من قيمٍ أو معتقدات، فإنه – في حقيقة الأمر – وعند المواجهة العملية – لا يستطيع ذلك، وسيغلبه ذوقه واتجاهه الفكري والعقدي. وإن كثيرًا من الناس – كما تقول الناقدة إليزابيث درو –: «يجدون أنهم لا يستمتعون بالشعر، إذا كانوا يختلفون مع الشاعر في معتقداته أو أفكاره، فاعتقاد ملتون الديني مثلاً قد حطّم كل استمتاعٍ بالفردوس المفقود، وكفر بوب بالأنظمة الدينية قد أفسد قصيدته: مقال في الإنسان»(١٢).

إن فكرة الالتزام إذن – من الناحية العملية – موجودة عند كل أديب، فالأدب تعبيرٌ عن فِكَر، وهو رؤية فردية جمالية للأشياء كما هي مُنطبعة في نفس الأديب، وهو انطباعٌ يرتسم من خلال شخصيته ومعتقده وثقافته.

وإن مما يؤسف له أن الدعاة الإسلاميين في هذا القرن لم يقدّروا دور الأدب حقّ التقدير، ولم ينزلوه في دعوتهم المنزل الذي يليق به، بل لم يستشعروا خطره البالغ في صياغة وجدان الناس وفكرهم، وأحيانًا عاداتهم وتقاليدهم، وانصرف جلّ اهتمامهم إلى البحوث الجادة، والدراسات الأكاديمية، والخطب والمقالات، وما شاكل ذلك من أساليب الدعوة، وبقي الجهد في مجال الأدب ضئيلاً هيّنًا، وظلت الأصوات التي نادت به، ودعت إليه، وحاولت التعريف به، والتنظير له، أصواتًا قليلة معدودة، على كثرة ما كان في الساحة الإسلامية من دعاة. بل إنّ الأدباء الإسلاميين أنفسهم لم يستشعروا خطر الأدب وقدرته على لعب دورٍ حاسم في معركة الإسلام مع أعدائه إلا في وقتٍ متأخر..

وإن من العجب أن يدّعي بعض من يتحدّثون عن الالتزام أنه من الأفكار الجديدة التي أتى بها الفكر الغربي الحديث، وأنه مفهومٌ حملته بصورة خاصة الوجودية والشيوعية، جاهلين أومتجاهلين أن نظرة الإسلام كلها إلى الكلمة تقوم على عدّها مسؤوليةً والتزامًا بدعوة إلى التزام الحق فيما يقول، يدعوه – في الوقت نفسه – إلى عدم السكوت على الباطل، أو مهادنة الظلم، أو تملّق الفسقة وأهل الضلال.

قال النبي ﷺ في بيان أمانة الكلمة والمسؤولية عنها: (**هل يكبّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم**؟)، وفي تراثنا المأثور أن الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس.

وعلى وجه الاحتمال يمكننا أن نلخّص النظرة الإسلامية إلى الالتزام فيما يأتي:

١ – إن الالتزام اليوم مطلبٌ حضاري؛ لأنه يعني تواصل الإنسان مع العصر، وعيشه فيه، فهذا – كما ذكرنا – عصر الأفكار والأيديولوجيات والمذاهب الفلسفية والسياسية والاجتماعية، ولا يمكن للإنسان أن يعيش متفرِّجًا على ذلك كله من غير أن يكون له موقف، وإذا كان هذا من شأن أي إنسانٍ متحضّر يحترم عقله، فما بالك إن كان هذا الإنسان مفكرًا أو أديبًا؟ إن وقوفه على الحياد، أو موقف اللامبالاة، أو انسحابه إلى عوالمَ ذاتية أو خيالية؛ لعارٌ ما بعده عار. وهو في حقّ المسلم أكثر عارًا، وأشدّ خزيًا؛ لأنه يعدّ نفسه مستخلفًا في الأرض، وقد جعله الله شاهدًا على الناس.

إن على الأديب المسلم أن ينظر فيما حوله، وأن يحدّد موقفه. يقول الناقد الفرنسي ماكس أوبريث: «ظهر مصطلح أدب الالتزام، أو أدب المواقف نتيجةً لتأثير الأيديولوجيات الحديثة في الأدب، التي تعكس، على الرغم من تعددها وتباينها، في شيءٍ واحد، وهو أنها تعكس المتغيرات الاجتماعية السياسية لعصرنا، ومن أجل ذلك فإن هذه الايديولوجيات تجبر كلّ امرىءٍ منا أن يعيد فحص موقفه نقديًا من العالم، ومسؤوليته نحو الآخرين»(١٣) بجلاءٍ ووضوح؛ ليعرف أين يضع قدمه، وفي أي جهةٍ يسير؟

إن الالتزام بهذا المفهوم حيوية وإيجابية. إنه يعني في هذا الواقع المتحرك بسرعة أننا طرفٌ فيه، أو

جزءٌ منه، نساهم في صنعه، وفي تحمّل مسؤولية ما يجري على سطحه، بدلاً من أن نتفرّج عليه، أو نجري وراء الآخرين مثل قطيع الأغنام.

٢ – إن الالتزام يجعل الأدب نشاطًا جادّا فعّالاً، ذا تأثيرٍ في مسار الحياة، وفي حركتها، مما يكسبه المصداقية والقيمة، ولو أخذنا برأي أصحاب الفن للفن، وبرأي بعض المدارس الحداثية المعاصرة، التي تنحو منحى الفن للفن على أشكالٍ مختلفة، لسقطت منزلة الأدب؛ إذ سيتحول عندئذٍ إلى حلى لفظية، وزخارف كلامية، لا غرض لها أبعد من ذلك.

٣ – إن الالتزام يجعل الأدب غيريًا، مرتبطًا بالآخر، منشغلاً به، ينبضُ بهمومه وأحاسيسه، ويعيش أفراحه وأتراحه بدلاً من انغلاقه على ذاته، واجتراره مشاعر فردية، أو هيمانه في أودية الخيال المسرف المجنّح.

٤ – إن الالتزام يتمشى مع سنّة الله في الكون الذي لم يخلق شيئًا عبثًا، ومن ذلك الكلمة، فهي أمانة ومسؤولية، بل هي أعظم مِنّة امتنّ الله بها على الإنسان ﴿**الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان. علّمه البيان**﴾.

ولا بدّ للأدب الذي مادته الكلمة أن يكون – ككل ما خلق الله – ذا هدف. إنه ابن الحياة، وعليه خدمتها، وذلك بمعالجة مشكلاتها، أو محاولة تجميلها أو تقديم تفسير لها، أو الكشف عن أسرارها، أو إيضاح الغرض منها، أو بيان الحق والباطل فيها، وهو بذلك كله يعين الإنسان على العيش فيها، ويكون له هاديًا في طريقها اللاهب البعيد.

كان وردز ورث يقول: «كلّ شاعرٍ عظيم معلّم. وأحب أن يعدّني الناس معلمًا أو لا شيء»(١٤).

•••

الحواشي

١ – انظر كتاب الصنم الذي هوى: ٢٢٠.

٢ – انظر فلسفة الجمال لجاريت: ١٦.

٣ – انظر: نقد الشعر لقدامة: ١٧.

٤ – انظر الاشتراكية والأدب: ٣٠.

٥ – الصف : ٢ ، ٣

٦ – الأحزاب : ٧٠ ، ٧١

٧ – آل عمران : ١٦٧

٨ – انظر النقد الجمالي لأندريه ريشار، ترجمة هنري زغيب.

٩ – انظر مجمع الزوائد: ٧/ ١٢٣.

١٠ – المصدر نفسه.

١١ – الترمذي: ٤/ ٢١٧، جامع الأصول: ٥/ ١٦٧.

١٢ – انظر الشعر كيف نفهمه ونتذوقه.

١٣ – أدب الالتزام.

١٤ – فن الشعر: ١٧.

المصادر والمراجع

ابن الأثير.

– جامع الأصول.

أوبريث : ماكس.

– أدب الالتزام، ترجمة د. عبد المجيد إبراهيم شيحة.

الترمذي.

– الجامع الصحيح.

جاريت.

– فلسفة الجمال، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين، دار الفكر العربي، مصر.

ريشار : أندريه.

– النقد الجمالي، ترجمة هنري زغيب، بيروت.

عباس : إحسان.

فن الشعر، دار صادر، بيروت.

عوض : لويس.

الاشتراكية والأدب.

قدامة :

نقد الشعر.

كستلر : آرثر.

الصنم الذي هوى، دمشق، ١٩٦٠م.